

الخاتمة

آثار الصراع الدولي " على شبه جزيرة العرب "

لقد بلغنا نهاية المطاف في بحثنا هذا الذي كرسناه لشبه جزيرة العرب والصراع الدولي عليها في الفترة السابقة لظهور الإسلام، وأصبح لزاماً علينا أن نكشف النقاب عن التأثيرات الحضارية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي تركتها الدول الكبرى في هذه المنطقة.

لم تكن هذه التأثيرات على مستوى واحد في كل المناطق فهي عميقة في المناطق الشمالية المتاخمة للعراق والشام، وفي المناطق المحاذية للساحل، والمحيط بالبادية، ذلك لأن الروم يريدون السيطرة على الطرق التجارية براً وبحراً إلى الهند وسيلان وبالوقت نفسه يرغب الفرس بفرض سيطرتهم وسلطانهم واحتكار التجارة غرباً حتى البحر المتوسط، والأحباش يطعمون في البلاد العربية، وهم والروم سواء، وقد سعوا لاحتلال مكانة

الجميريين التجارية^(٤٤).

أما المناطق الصحراوية النائية في الداخل، وعلى الأخص في بلاد نجد المحاطة بالرمال من جهاتها الأربع فقد كانت هذه التأثيرات الخارجية محدودة فيها، وذلك لأنها لم تخضع في أي وقت من الأوقات لأي سيطرة خارجية مباشرة، وإن كانت في أحيان كثيرة على علاقة إلى حد ما بالقوى الكبرى في الخارج^(٤٥).

إزاء ذلك عمل الفرس على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى المحيط الهندي؛ والاتجار مع بلاد العرب، وعمل المعسكران "بيزنطة وإيران" بكل جد وحزم على بث الدعاية والتأثير على عقول الناس لكسبهم إلى صفهم ضد الطرف الآخر.

لذا فقد شجعوا على نشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبش، ولتأييد اليهودية أيضاً، وهي معارضة لسياسة الروم، وذلك بالوقت الذي لم يكن الفرس يدينون فيه لا بالنصرانية ولا باليهودية إنما كان دينهم بغيضاً لأصحاب الديانتين^(٤٦).

إذاً، والوضع كذلك لا بد من ظهور آثار مختلفة على هذه المناطق وفي نواح مختلفة:

أولاً: الآثار الاجتماعية

عاونت المصادر التي استطلعنا استقرارها على تثبيت الخطوط العريضة للنمو المنتظم للمجتمعات العربية وعلى تحديد أشكالها، ومستوى تطورها الاجتماعي، كما عاونت أيضاً على الخروج باستقرارات جديدة ذات طابع عام.

فقد سبق ظهور الإسلام هزات اجتماعية عميقة الأثر، حيث تفكك النظام القبلي البدائي، وانقسم المجتمع إلى فئات غنية تملك وسائل الإنتاج وفئات فقيرة غير مالكة^(٤٧).

(1) ضرار: العرب من معين إلى الأمويين ص 28.

(2) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية - ج 2 "الإطار الخارجي لجاهلية العرب" ص 316 مقالة كمال سليمان الصليبي.

(3) جواد: تاريخ العرب 24/3

كانت ديانة الفرس المجوسية ولكنهم شجعوا على المسيحية النسطورية.

(4) مروءة: النزعات المادية 324.323/1

وعاشت أغلبية المجتمع في ظل العبودية، لأن الثروات آنذاك لم تستثمر اجتماعياً، إنما كانت تستثمر من قبل أفراد، ولمصلحتهم المحدودة، فلم يترتب على استثمارها ازدهار اقتصادي واجتماعي، لأن وجود الطبقة الغنية والمستغلة كان يعتمد بالدرجة الأولى على احتكار الإنتاج المحلي، وتوظيفه في نشاط تجاري مربح^(١).

فمجتمع اليمن مثلاً لم يكن قبل الإسلام متوئماً، فقد وجد فيه حضر وبدو. وأعراب وفلاحون، وعمال وأذواء ومقاول، وأسر أرستقراطية فارسية^(٢)، تستحوذ على معظم الإنتاج الزراعي والحيواني والمعدني والصناعي وتسيطر على التجارة، وظهرت فيه مجموعات كبيرة من العبيد لكل منهم وضع اقتصادي واجتماعي مختلف.

ويظهر أن السكان باستثناء المقاول والأذواء والأسر الأرستقراطية كانوا يقاسون من تذبذب النظام الاقتصادي، وطابعه الاستغلالي، وبالوقت نفسه فهم محرجون بما عليهم من الخراج والأثقال، غير قادرين على تحمل نفقات إضافية كالجباية التي مارسها الساسانيون^(٣). وبدأت أيضاً ملامح الملكية الخاصة تظهر في مكة فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون، والفرق شاسع بين ثراء السيد الشريف وفقير المعوز البائس.

حتى أن الرقيق من الروم النصاري^(٤) بيع في الأسواق، وكانت مكة في ذلك مقصد الأثرياء، وملتقى التجار، وذلك بفضل ما أدى إليه تجمع زعامة قريش الغنية للحفاظ على مصالحها، ولتنظيم علاقاتها المادية مع الفئات الأخرى من سكان مكة، و سكان شبه الجزيرة العربية بعامه، ومن إنشاء التنظيم السياسي الأول الذي ظهر في الشكل المعروف تاريخياً باسم دار الندوة^(٥)، فارتفع شأن قريش بين قبائل العرب خاصة بعد عقدتها حلف

(1) حديثي: أهل اليمن ص113

(2) تزوج الكثير من الفرس يمنيات، واستوطنوا في اليمن، وقد سمي أولادهم بعد ذلك بالأبناء، ابن حبيب

المحبر 266. دائرة المعارف الإسلامية 66/1

جواد: المفصل 374/7

شكري: الأوضاع القبلية ص147.

(3) حديثي: أهل اليمن ص114

(4) الحوي: الحياة العربية ص299

ضيف: العصر الجاهلي ص77

(5) ابن هشام: السيرة النبوية 132/1.

الطبري: تاريخ الرسل والملوك 259/2.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن اختلاط العرب بالروم والفرس والأحباش جعلهم يؤثرون فيهم، ويتأثرون فقد قلدوهم في اللباس والطعام والشراب خاصة القرشيين، فمثلاً عبد الله بن جدعان أتى العرب بطعام لا عهد لهم به هو الفالودج الفارسي، فقد اصطلح معه طبخ خاص ليطلب له طابخ أهل الحيرة وأهل فارس.

ولم يكتف بذلك فعندما سمع غناء القيان بفارس اتخذهن لنفسه فغنين له ولأصدقائه، ولمن يقصد داره، وكان يتاجر فيهن، وله نخاس يتولى هذا، وهو صاحب القينتين اللتين اسماهما بجرادتي عاد، ووهبهما لأمية ابن أبي الصلت الثقفي (٥٠). وكانت القيان فارسيات، وروميات وحبشيات يغنين الشعر العربي بالحنان فارسية، أو رومية فيؤثر في النفوس تأثيراً عجبياً (٥١).

ولقد أدخل الأحباش ضروراً من الرقص والغناء لم تكن معروفة (٥٢). من هذا نرى أن العرب أخذوا الغناء عن الأمم المجاورة (٥٣)، حيث شاع في أمهات القرى من بلاد العرب كالمدينة، والطائف، وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل، واليمامة،

ابن الأثير: الكامل في التاريخ 21/2

مروة: النزعات للمادية 324/1

(1) ابن هشام: السيرة النبوية 140/1-141.

السهيلي: الروض الأنف ج 1 ص 156

ابن حبيب: المنصق ص 52-53،

تاريخ اليعقوبي 17/2

الاصبهاني: الأغاني ح 17 ص 287-290، ابن كثير: البداية والنهاية 291/2-293

الفاسي: شفاء الغرام 99/2، الفاسي: العقد الثمين 151/1

أفغاني: أسواق 183، علي حسن: التاريخ الإسلامي 108

(2) الاصبهاني: الأغاني 327/8

حوي: تيارات ثقافية ص 67

(3) حوي: الحياة العربية ص 124

(4) عابدين: بين الحبشة والعرب ص 124

(5) المسعودي: مروج الذهب 134/4 وما بعد

ابن خلدون: المقدمة فصل صناعة الغناء ص 335 وما بعد

وكانت هذه القرى مجامع أسواق العرب^(١).

ثانياً: الآثار الاقتصادية

كان السبب الرئيس لنشوء العداء بين إيران وبيزنطة، المشاكل المتعلقة بالحدود وطرق التجارة، حيث كان من العسير تحاشي الالتقاء فيها بالقبائل العربية من الرحل وأشباه الرحل. وقد أعانتنا مادة المصادر التي استطعنا الحصول عليها من أن نحدد بثقة تامة دور العرب في التبادل التجاري ومشاركتهم المباشرة في نقل السلع، وإيصالها، بل وفي التجارة نفسها.

ويصدق هذا على طريق الطيب الذي كان يخترق شبه الجزيرة العربية بحالها، والحجاز مهد بني إسماعيل، كما يصدق أيضاً على القسم الشرقي من طريق الحرير الممتد من الأفطار الواقعة وراء نهر دجلة إلى سواحل سورية. إذاً كانت الصراعات الدولية مرتبطة إلى حد كبير بالمقدرة في السيطرة على الطرق التجارية.

أول ما نشطت التجارة في اليمن، فجنى قدماء اليمنيين أموالاً طائلة منها، وحصلوا على فوائد معنوية من اتصالهم بغيرهم، فتطورت الحضارة بينهم تطوراً ملموساً، وبنوا المعابد والقصور، وأقاموا السدود للاستفادة من مياه الأمطار، وخلفوا آلاف النقوش التي تساعد الآن على فهم مدينتهم القديمة^(٢).

لكن هذه التجارة المزدهرة تعرضت للاضطراب والتدهور بسبب ما لحق البلاد من فوضى بصراع الفرس والروم والأحباش عليها. وإدخالهم المسيحية البلاد وصراعها مع اليهودية^(٣). وكل ذلك من أجل السيطرة على التجارة وطرقها والتحكم في منافذ شبه جزيرة العرب. فتضاءل شأن الطريق البحري، وازدهر الطريق البري من اليمن إلى الشام بحيث أصبح طريق القوافل شرياناً حيوياً للتجارة ولنقل ثقافات البلاد المختلفة. وأدى ذلك إلى دمار منشآت الري باليمن^(٤). وهجرة القبائل المتعددة، ولمس معالم كثيرة من القرى

(١) شيخو: النصرانية وأدبها 1/481.

(٢) فخري: اليمن ماضيها وحاضرها ص 2

(٣) كوبيشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي ص 58

(٤) موسكاتي: الحضارات السامية ص 193

والمدن القديمة التي كانت تسقى بالمياه التي تخزنها السدود، وتشتت سياسي واضح.
وبالتالي انتقلت الزعامة الاقتصادية إلى مكة فأصبحت محطة تجارية هامة يطلب
ودها الملوك والأمراء^(١٤).

ومع الزمن صارت مركزاً مالياً خطيراً في الحجاز وسوقاً لتبادل السلع، واعتماد
الروم عليها في كثير من شؤونهم حتى فيما يترفعون به كالحريير والذهب، والبخور،
فاستظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه "كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومية يستخدمها
الروم للشؤون التجارية، والتجسس على أحوال العرب، كذلك كان فيها أحباش ينظرون
في مصالح قومهم التجارية"^(١٥).

مع العلم أنه لم يسمح للتجار العرب بالدخول إلى داخل الإمبراطوريتين لأن الفرس
والروم لم يكونوا يثقون بهم، لذلك اقتصر دخول تجار مكة إلى أسواق معينة مثل
الحيرة، وبش و غزة على أطراف الدولتين^(١٦).

استفادت قريش من هذه التجارة فوائد جلييلة مادية ومعنوية، أما المادية فجعلتهم
ينعمون بحياة رخيصة رحية، وأما المعنوية فقد أصبحوا أصحاب ثقافة وأفق عقلي واسع.

ولا غرو فإن مخالطتهم أرباب تلك المتاجر من روم وفرس وأحباش وغيرهم من أرباب
الحضارات القديمة والعلوم العريقة جعلتهم أوسع مدارك من غيرهم وأعظم، وأجل نظراً،
كما جعلتهم على إطلاع واسع على آداب التجارة والسياسة وأنظمة العلاقات التجارية
كما عرفتهم على الكثير من الأحوال التجارية، ودقائق علم الحساب التجاري.

ولا ينسى في هذا المجال دور اليهود بما كان لهم من مزارع وحصون ومتاجر، ومصارف،
وما كان منهم من الصنائع والصياغ والحدادين، والتجارين بأن أثر ذلك في رفع مستوى الحجاز
الاقتصادي والاجتماعي، وعرفهم على ضروب المتاجرة من الصيرفة والربا والنسيئ والتخفيف
في البيع والحيل التجارية، والتعامل بالنفود، وإدخال أنظمة اقتصادية جديدة.

(1) دراسات تاريخية العدد 15 - 16 لعام 1984

"محات من تاريخ آيلة" صالح دراركة ص4

(2) أمين: فجر الإسلام ص13.

أفغاني: أسواق ص99 وما بعد

حوي: الحياة العربية ص101

(3) دراسات تاريخية عدد 15 - 16 لعام 1984 "محات من تاريخ آيلة" صالح دراركة ص4.

من كل ذلك يمكن الاستنتاج أن الصراعات الدولية خلفت آثاراً اقتصادية منها ما هو سلبي ومنها ما هو إيجابي.

على أنه يمكن التويه إلى أن دخول الفرس لليمن أدى إلى حدوث تطور في علاقات أهل مكة بالفرس والروم، فصار الفرس يرسلون بلطائهم وبضائعهم إلى أسواق مكة للبيع والشراء. أثر هذا الوضع على تجارة مكة تأثيراً كبيراً إذ انتزع الفرس، وملوك الحيرة من أيديهم قسماً من أرباحهم، وربما لا يستبعد أن يكون الهجوم الذي وقع على لطيمة النعمان بن المنذر ملك الحيرة بتشجيع من أهل مكة، ذلك الهجوم الذي نجم عنه ما عرف بالفجار^(٤).

وذلك للإضرار بالفرس وبملوك الحيرة، وبث الرهبة والخوف في قلوب القوافل التي صارت تسلك طريق الطائف، ثم منها إلى مواضع في البادية إلى الحيرة متجنبين طريق مكة^(٥). أما في اليمن فقد أدى دخول الفرس إليها إلى تنمية النظام الإقطاعي فيها وإلى عودة النشاط للتجارة اليمنية، وإلى قيام بعض القبائل كقبيلة مذحج وسيطرتها على أهم الطرق التجارية آنذاك.

ثالثاً: الآثار السياسية

عانى العرب قبل الإسلام من التفكك السياسي، فلم تتوحد دولتهم دولة موحدة حتى من الناحية الشكلية^(٦). كما عانوا من فقدان المثل العليا التي ترتفع بتفكيرهم وتجمعهم وتوجههم إلى القيام بدور حضاري بناء، أي إلى عقيدة تسمو بأفكارهم، وتكون قوة محركة لهم، الأمر الذي يسر للساسانيين، والروم اليمينة على أطراف الجزيرة العربية، وحصر أهلها ومحاولة مد سلطانهم وفرض سيطرتهم عليها جميعاً، والعمل على إبقائها منفكة خاضعة لمؤثراتهم ومصالحهم^(٧).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية 1/195-196 وما بعد

ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/590 وما بعد

جاء المولى: أيام العرب 326.

(٢) جواد: المفصل 4/115

(٣) هل: الحضارة العربية ص12

(٤) حديثي: أهل اليمن ص5

ورغم فقدانهم الوحدة السياسية، إلا أنهم في بعض المناطق على الأقل، وصلوا إلى مستوى عال من النمو^(١). فقد تمتع الحجاز مثلاً بالاستقلال، وظهرت على أهله طبائع خاصة من حيث عراقة أصلهم، وشرفهم وشهامتهم التي كانت مضرب الأمثال، ولغتهم التي حافظت على نقائها وصفائها بحيث كان النظام القبلي يسيطر على الحالة العامة فيها، فلكل قبيلة كيانها السياسي المستقل، ولكل قبيلة شيخها، وحاكمها، وكاهنها وشاعرها^(٢) ولا ينسى ما كان لأهل مكة وقريش بصفة خاصة من مكانة مقدسة رفيعة، جعلتهم يمتازون عن بقية العرب بأنهم أهل بيت الله^(٣).

إن مجتمعاً سياسياً هذا شأنه يصعب ظهور دولة قوية كبيرة فيه، فإن هذه النظرة القبلية الضيقة كفيلة بتقويض بنيان الدول الكبيرة من الخارج، ومن الداخل بمنافسة المشايخ والرؤساء للحاكم. وقيامهم عليه حال شعورهم بضعف أصحاب الحل والعقد، وحوادث اليمن خير شاهد على ذلك، فلم يترك الأقيال والأذواء للملوك فرصة للعمل والإنتاج بل شغلهم في كثير من الأحيان بإخماد الثورات الداخلية وبالقضاء على الفتن التي تثيرها أحقادهم بينهم، حتى صارت الدولة دول طوائف لا شغل لها إلا الحروب^(٤).

وصار الأعراب يؤثرون في السياسة تأثيراً واضحاً، وأصبح في استطاعتهم إحداث تغيير كبير في الوضع السياسي^(٥).

فهناك إشارات إلى أعراب مرتبطين ببعض القبائل، فلكندة أعراب، ولمذحج أعراب ومع أن سبب ذلك غير واضح، إلا أن تمتع الأعراب بروج قتالية عالية جعلهم عنصراً أساسياً في الحرب. في وقت كانت فيه الصراعات الداخلية في اليمن نشطة، أي أن قبائل

(١) حديثي: أهل اليمن ص 12

(٢) تاريخ البعقوبي 304/1.

الاصبهاني: الأغاني 25/3، الألويسي: بلوغ الأرب 15/3

جواد: المفصل 70/9، شريف: مكة والمدينة 26.

الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه 31- 32- 33- 34.

سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام ص 404

خربوطلي: الحياة الاجتماعية في الحجاز رسالة ما جستير غير منشورة ص 3

(٣) طلس: تاريخ العرب 79/1- 80.

(٤) جواد: تاريخ العرب 220/3

(٥) جواد: المفصل 571/2

اليمن فقدت روحها القتالية، فاستعانت بالببدو واستخدمت الأعراب الذين ينتقلون من مكان لآخر، ووجهت روحهم القتالية لخدمة مصالحها بدل التصادم معهم.

ويبدو أنهم شكلوا عنصراً مهماً، فقد أشار ملوك اليمن في القرن الخامس الميلادي إليهم في ألقابهم الملكية بإضافة عبارة "وأعرابها في الجبال والتهائم"^(١) إلى ألقابهم.

وصار من المتحتم على حكام الممالك والمشيوخات مصانعة الأعراب، ومداهنتهم لتأمين سلامة أرضهم، ووضع قوات لصددهم حين لا تنفع معهم المصانعة والمداهنة، والقيام بغزو الأعراب أيضاً لإيقاع الرعب في نفوسهم. فالتسكوت عنهم، أو التساهل معهم يعني في عرفهم ضعف ولين، والضعف من موجبات الغزو^(٢).

شمل هذا الوضع العربية الغربية، خاصة زوال نفوذ حكومة الحميريين عنها، بسبب الأحداث الداخلية، والحروب والفتن التي وقعت في داخل تلك الحكومة وظهور مشيخات نازعت الحكومة المركزية سلطتها، واستقلت كل مشيخة في أرضها، مما مكن الأحباش مراراً من التدخل في شؤون اليمن الداخلية. ثم شجع الفرس من بعدهم بفرض نفوذهم على تلك البقعة الخصبة من الجزيرة^(٣).

وتجدر الإشارة أنه على الرغم من تعدد القبائل والمشيوخ والإمارات فلم يشر أهل الأخبار إلى أسماء ملكات حكمن الجزيرة العربية أو بعض أجزائها قبل الإسلام^(٤).

حكم مكة عدة رجال قسمت الأعمال بينهم، ولم يلقب زعيمهم، أو المنتفذ فيهم بلقب ملك، وكان الحكم للملأ، وهم أصحاب الحل والعقد في البلد، والحكم في الناس وفق العادات والأعراف، والقوانين الموروثة، وهم أشرف القوم ووجوههم،

(1) أرياني: نقوش مسندية 364

جواد: المفصل 571/2

(2) جواد: تاريخ العرب 220/4

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 139/2.

الدينوري: الأخبار الطوال ص52

المسعودي: مروج الذهب 25/2

ابن الأثير: الكامل في التاريخ 447/1

ابن الكثير: البداية والنهاية 221/2- 222

تاريخ الخميس 19

(4) جواد: تاريخ العرب 229/4

وروءساؤهم، والملا القوم ذوو الشارة أي ذوو المظهر الحسن^(١).

أما يشرب فقد تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج، وبعد جدل طويل، وحروب استقروا على أن يكون الحكم بينهما بالمنابذة في كل عام زعيم من زعماء الحي الواحد، يليه في العام الثاني زعيم من الحي الثاني، وبذلك يكونون قد وضعوا نظام التناوب في الحكم^(٢).

أما بقية المدن العربية، فقد كان يحكم بعضها عند ظهور الإسلام حكام يلقبون أنفسهم ملوكاً، وهم في الواقع مشايخ مدن، ومشايخ مقاطعات، وكذلك كان يحكم العربية الجنوبية مثل حضرموت عدة مشايخ تلقبوا بألقاب الملك^(٣).

إزاء ذلك طمع الأجانب من فرس وبيزنطيين وأحباش بالسيادة على بلاد العرب، وكانت لهم محاولات متعددة، جعلت الناس يتذمرون في كل مكان من سوء سياسة الإمبراطوريتين وجعلتهم يودون التخلص من الفرس والروم وكذلك الأحباش^(٤).

وشعر العرب إزاء هذه الظرف بضرورة الاتحاد لما رأوه من تهديد الروم في الشمال، وتهديد الفرس في الشرق، وتهديد الأحباش في الجنوب وأخذت المبادئ القومية تنمو فيهم إلى أبعد حد.

وتكون في الجزيرة نوع من الوعي السياسي، والميل إلى شيء من التكتل في بعض الجهات، ففي منتصف القرن الخامس الميلادي، تكونت في وسط الجزيرة مملكة قبلية نتيجة اجتماع عدة قبائل يمنية في وسط الجزيرة برئاسة رئيس واحد.. وتلك هي مملكة كندة^(٥) التي عاشت في القرنين الخامس والسادس الميلاديين واعتمدت في بقائها على عصبيتها، ولم تعتمد على قوة فارس أو بيزنطة^(٦).

ومن حسن الحظ أن بدت الأحوال مساعدة للعرب عندما أحبطت الحجاز غزو

(١) لسان العرب مادة ملا

تاج العروس مادة ملا

(٢) (٣) جواد: تاريخ العرب 229/4 - 230

(٤) جواد: المفصل 659/2

(٥) جانار: ملوك كندة ص 181

(٦) نيلسن: التاريخ العربي القديم ص 249

وأخذت بعز لقب العاصمة، فعزم عبد المطلب على ربط جميع القبائل المستقلة بهذا المركز المشترك، وبينما كانت النفوس تميل إلى الوحدة في الداخل ميلاً عاماً، وكان استقلال العرب يتم بفضل ما وقع بين الروم والفرس من الحروب الطاحنة، وما وقع بين هاتين الأمتين من الصراع بلغ غايته قبل الإسلام^(١).

وتنبه العرب إلى ضرورة الوحدة، وصنع جبهة واحدة ضد الأعداء الطامعين بالبلاد وظهر ذلك في موقعة ذي قار حيث انتصر العرب على الفرس لأول مرة في تاريخهم^(٢). هذا أفضل أثر تركته الصراعات.

(١) الأزهري: أخبار مكة 45/1 وما بعد

الطبري: تاريخ الرسل والملوك 138/2

ابن الأثير: الكامل في التاريخ 445/1

ابن كثير: البداية والنهاية 21.216/2

(٢) سيديو: تاريخ العرب ص 63

(٣) ابن الكلبي: نسب معد واليمن 97/1 وما بعد.

أبو عبيدة: النقائض 638/2 وما بعد.

ابن يكار: نهاية الأرب 131-141

ياقوت: معجم البلدان مادة قار

الحلي: المناقب المزينية 403/2 وما بعد

المسعودي: مروج الذهب 317.306/1

النويري: نهاية الأرب 431/15 وما بعد.

جواد تاريخ العرب 103/4

الحوي: الحياة العربية 119

علي حسن: التاريخ الإسلامي 84-85

سالم: تاريخ العرب في الجاهلية 283 وما بعد

سعد: تاريخ العرب قبل الإسلام ص 23 وما بعد

فروخ: تاريخ الجاهلية 78 وما بعد

برو: تاريخ العرب القديم ص 225 وما بعد

مروة: النزعات المادية 304/1 وما بعد

النص: اختيارات من كتاب الأغاني 297/1 وما بعد

الشطي: الحضارة العربية ص 51

رابعاً: الآثار الثقافية

إذا كان للصراعات المختلفة آثار اجتماعية واقتصادية وسياسية، فقد كان تأثيرها الثقافي أعمق، وذلك لأن:

1 - الشعر واللغة أعمق ارتباطاً بتاريخ الجزيرة القديم، فقد كان أكثر تأثراً من سائر الظواهر الثقافية في مجتمع ما قبل الإسلام^(١).

فأهل الحجاز مثلاً وبسبب اختلاطهم بالروم والفرس والأحباش تعلم فريق منهم الكتابة من الحيرة ونشروها لما رجعوا إلى بلادهم^(٢).

حيث حملت القافلة شيئاً أعظم وأهم قيمة من التجارة، هو حروف الهجاء والحروف التي أخذ منها الخط الذي كتب به القرآن الكريم، فصار الخط الرسمي للمسلمين، الخط الذي لم يقتصر استعماله على العرب، بل صار خطاً لملايين المسلمين الذين تربطهم بالعرب رابطة الدين.

وقد وصلوا إلى مستوى فكري لم يصل إليه البدو وسكان الواحات، فحسنت إدارتهم للكعبة، وسهلوا على الناس القدوم إليها، وشجعوهم على الحج إلى بلدهم^(٣).

هذا على الرغم من أن الحجاز لم يكن قبيل الإسلام واقعاً في مجرى التيار العالمي من ناحية الثقافة، إلا أنه لم يكن بمنأى عنها، فقد تخلل لغته أسماء رومية وفارسية وغيرها^(٤).

وتسربت إليه من بلاد العرب الجنوبية بعض الآثار الثقافية مما لفحت به لغة العرب الشمالية أي لغة قريش التي تمكنت في القرن السابق للإسلام من أن تسود لغات العرب أجمعين، وتصبح لها الصدارة بين كل لهجاتهم. فقد نزل القرآن الكريم بلغة قريش، فألفاظ الرحمن والرحيم وشرك وكفر وغيرها هي ألفاظ جنوبية سلكت السبيل إلى

(١) مروة: النزعات المادية 324/1.

(٢) الألوسي: بلوغ الأرب 368/3 وما بعد

أفغاني: أسواق ص 113

هل: الحضارة العربية ص 17

(٣) خاني: تاريخ العرب والإسلام ص 40

(٤) أفغاني: أسواق ص 44.

هيو: تاريخ العرب ص 303

الحجاز واستعملت في المعاني التي كانت تطلق عليها في الجنوب^(١).

فمن الطبيعي والوضع كذلك وجود عدد يسير في مكة والطائف يحسنون الكتابة. كالأعشى الذي كان يجالس أساقفة نجران، فأخذ عنهم الحكمة ورحل إلى فارس فعرف كلمات فارسية كثيرة استخدم بعضها في شعره^(٢).

وكعدي بن زيد الذي تعلم الكتابة العربية والفارسية، و كالمرقش الأكبر الذي تعلم الكتابة عن نصراني من أهل الحيرة، و كلقيط بن يعمر الأيادي الذي كتب لكسري وترجم له^(٣).

وكعرب بن أمية الذي تعلم الكتابة عن بشر أخي أكدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل لأنه كانت له تجارة عنده في بلاد العراق، ثم سافر بشر معه إلى مكة فتعلم جماعة من أهل مكة، وبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبل الإسلام ولقد طور العرب أبجديتهم الجديدة على أساس الكتابة الآرامية الشمالية، أما خط المسند الذي دونت به النقوش العربية الجنوبية فقد أهمل ولم يلبث أن طوته ذيول النسيان.

"فتنصاري الشمال من أهل العراق كانوا يترددون إلى اليمن وإنهم أدخلوا بين أخواتهم في الدين الكتابة السريانية بدلاً من الخط المسند الشائع هناك قبلهم^(٤)".

فالحيرة من العوامل التي نشرت الثقافة الفارسية في بلاد العرب كما كان لها أثر في نقل بعض مظاهر الثقافة الآرامية النسطورية قبل أيام الرسول، ولما كان النساطرة أنفسهم متأثرين بالحضارة الآرامية فقد كانوا أيضاً واسطة في نقلها مع ثقافتهم، والثقافة الفارسية إلى قلب بلاد العرب الوشية^(٥).

وعرف العرب بعض أخبار، الفرس، و قصصهم كقصّة رستم واسفنديار^(٦).

(١) نافع: عصر ما قبل الإسلام ص 218

(٢) حوي: تيارات ثقافية ص 24

(٣) البكري: معجم ما استعجم 1/75

حوي: تيارات ثقافية ص 2

(٤) شيخو: النصرانية وأدائها 1/59

جواد: تاريخ العرب 3/207

(٥) نافع: عصر ما قبل الإسلام ص 219

(٦) قصة فارسية قديمة: أعادها الفردوسي في الشاهنامه تدور حول الحرب التي نشبت بين رستم بطل إيران

ولا ينكر في هذا المجال دور الرقيق خاصة الأبيض الذي كان على درجة من حسن الفهم والمعرفة، وإتقان الكتابة والقراءة، ولهم اطلاع على شؤون دينهم ومعارف ذلك العهد ولهذا أو كل إليهم، القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة^(٤٤).

2 - وكانت المعارف قبل الإسلام محصورة بحصيلة متفرقة غير منتظمة من التجارب الحسية المباشرة والمحاكيمات الفكرية البسيطة خلال التعامل اليومي الحي مع أشياء الطبيعة والظواهر الكونية المكشوفة لديهم والمؤثرة في حياتهم اليومية، خلال مجرى العلاقات الاجتماعية المعينة، وما تخلقه هذه العلاقات من نوعية محددة للعادات والتقاليد والأشكال الحقوقية العنوية التي كانت تقوم عندهم مقام القوانين في المجتمعات الحضارية^(٤٥).

فقد ساعد على انتشار الثقافات، هجرة أبناء الجزيرة، وتقلهم من مكان لآخر^(٤٦)، مثل الهند والحبيشة والبلاد الإفريقية، والأسبوية الأخرى^(٤٧).

فانتقلت فنون فارس الحربية إلى الحجاز عن طريق اليمن، كما انتقلت أيضاً عن طريق الحيرة، فسلمان الفارسي نفسه هو الذي أشار على الرسول(ص) بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب^(٤٨).

ولقد تعلموا الطب من الحيرة، " كان الحارث بن كلدة طبيب العرب أصله من ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب على أهل جند يسابور وغيرها قبل الإسلام وطب بأرض فارس، وحصل مالاً، ثم إن نفسه اشتاقت إلى بلاده، فرجع إلى الطائف واشتهر وأدرك الإسلام^(٤٩) ".

القديم الذي كفل لها النصر على أعدائها أكثر من ثلاثمائة سنة. وبين اسفنديار البطل وأظهر

أسفنديار بطولة تشبه بطولة رستم، لكن المباراة بينهما انتهت بمقتل اسفنديار.

حوي: تيارات ثقافية ص 56.

(1) جواد: الفصل 6/603

(2) مروءة: النزعات المادية 1/325

(3) ثيلسن: التاريخ العربي القديم ص 114

(4) الندوي: تاريخ الصلوات ص 18

(5) ابن هشام: السيرة النبوية 224 وما بعد

الطبري: تاريخ الرسل والملوك 2/564 وما بعد

(6) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول 156.

ينظر شيخو: النصرانية وآدابها 1/365.

كذلك رحل ابنه النضر إلى الحيرة، وإلى فارس فأتقن الفارسية، واقتنى بعض كتبها (لغ).

ولقد مثل الشعر الشعبي للقبائل العربية عنصراً أساسياً في تكوين الأدب العربي كما تردد صدها خاصة في أيام العرب التي تغنت بالوقائع والمعارك التي جرت بين القبائل العربية وقد ارتبط ظهور الشعر العربي بأسماء الشعراء الأوائل من أمثال الحارث بن حلزة ووعمر بن كلثوم وأمرئ القيس.

3 - أما الظاهرات الدينية فتبقى أكثر ظاهرات الوعي قبل الإسلام تأثراً بعملية النشاط البشري المادي، فحين كان النظام القبلي البدائي لا يزل سائداً قبل الإسلام، ويقسم مجتمعاتهم القبلية على أساس رابطة الدم والنسب بأضييق حدودها، كانت الوثنية وحدها هي ديانتهم السائدة، ذلك لأنها كانت تمثل في وعيهم صورة عالم القبلي نفسه، فهو عالم العلاقات البشرية بأبسط تكويناتها التاريخية وأكثرها تجزؤاً وتعداداً (س).

وهي، أي الوثنية، مثلت تصور علاقة الإنسان بالطبيعة وظواهراتها الكونية، وصورت هذه العلاقة كعلاقة سيطرة مطلقة قدرية ثابتة، ونهائية على الإنسان وعكست الوضع السائد آنذاك، فقد كانت تعددية تبعاً لتعددية الجماعة القبلية ذاتها.

لكن وكما لوحظ حين بدأ المجتمع يتمخض قبل الإسلام بتحويلات تؤدي إلى تغيير في تركيبه الاجتماعي وفي اتجاه علاقاته الاجتماعية نحو الانقسام على أساس جديد يمهّد للأساس الطبقي، أخذت الظاهرات الدينية تتأثر بهذا التمهض الاجتماعي فظهرت الوجهة التوحيدية تبرز في هذه الظاهرات، برزت في التوحيد اليهودي وبرزت في التوحيد بمفهومه المسيحي، حيث وجدت في بعض المناطق قاعدة للديانة المسيحية، وكانت قد ظهرت بالمفهوم الذي سيصبح مفهوم التوحيد الإسلامي وهذا هو دين الحنفاء، هذا الذي كان التعبير الناضج على صعيد الوعي الديني، وعن اتجاه المجتمع العربي قبل الإسلام

حوي: تيارات ثقافية ص 24

(1) حوي: تيارات ثقافية ص 24

حوي: الحياة العربية 120

شيخو: النصرانية وآدابها 365/1

(2) مروة: النزعات المادية 325/1

نحو الصراع مع نظامه القبلي البدائي التعددي^(١).

ولا يخفى أن القبائل العربية خاصة بني حنيفة، مذحج، كندة تعرضت للأفكار النصرانية ومزجتها مع ثقافتها^(٢).

وقامت قبيلة بني الحارث بن كعب بن مذحج ببناء دير أو بيعة لها سميت كعبة نجران يحجون هم وخثعم وطوائف من العرب إليها^(٣).

فكان للنصرانية أثر في نصارى عرب قبل الإسلام، فقد أثر من ناحية الفن، إذ أدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً في البناء، هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح، والمحاريب، والزخرفة، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالنزعة النصرانية^(٤).

وقد أفرد شيخو فصلاً خاصاً في التعرف على تأثير النصرانية "في ترقية الجمال، ونشر أصحابها لأخص فنونه بين العرب، وأشهر هذه الفنون أربعة، هندسة البناء، والتصوير والحفر، والموسيقى^(٥)". وأفرد لكل منها باباً خاصاً.

وبهذا فإن للصراعات أثراً في الناحية الثقافية فمن حيث اللغة تعلم فريق من العرب الكتابة ونشورها لما رجعوا إلى بلادهم، فكان الفضل في ذلك للحيرة وللرقيق الأبيض الذي كان على درجة من حسن الفهم والمعرفة، وإتقان الكتابة والقراءة.

وتأثرت الظاهرات الدينية كذلك بالصراعات المختلفة فظهرت الوجهة التوحيدية التي مهدت لظهور الإسلام، وكان لهذه الظاهرات الدينية وخاصة المسيحية أثر في ترقية الجمال ونشر لأخص فنونه بين العرب.

(1) مروءة: النزعات المادية 325/1

(2) حتي: تاريخ العرب المطول 113/1.

روم لاندو: الإسلام والعرب 25

شكري: الأوضاع القبلية ص164

(3) البكري: معجم ما استعجم 603/2.

ياقوت: معجم البلدان مادة ديرو مادة نجران

شكري: الأوضاع القبلية ص164

(4) شيخو: النصرانية وآدابها 343/1-344.

جواد: المفضل 690/6

(5) شيخو: النصرانية وآدابها 343/1